كتابة بالدم

سيرين جلال

نسمات الأدب

كتابة بالدم

سيرين جلال

تستعرض لكم دار نسمات الأدب للنشر

الإلكتروني بعزيمة وإبداع جديد

الكتاب: كتابة بالدم

المؤلفة: سيرين جلال

غلاف الكتاب: ملك البقري

موك اب الكتاب: دينا علي

تنسيق داخلي: وسيم الزهري

إدارة الدار: رزان محمد كليب

مع نسمات الأدب، أفكارك تنبض بالحياة!

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

المقدمة

مرحبًا بك عزيزي القارئ، قبل أن تفتح هذا الكتاب دعني أخبرك بشيءٍ مهم:

هذه الرواية ليست مجرّد كلمات تُسرد، ولا أرقام تُحصى... إنها حقيقة تُعاش في وطنٍ مُغتصَب.

فإن لم تكن من محبّي الحقيقة، وإن كنت لا تطيق مواجهتها، فأنصحك بإغلاق هذا الكتاب والمغادرة بهدوء.

أما إن كنت تملك من الجرأة ما يكفي لتغوص بين سطور الألم، فمرحبًا بك مجددًا، اقرأ كل كلمة بتمعّن، ولا تمرّ على الأرقام مرور الكرام، فخلف كل رقم حكاية، وخلف كل حكاية روح.

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

في المدينة الهادئة التي تُشبه الحلم بنورها، وزقزقة عصافيرها كل صباح، خيّم الليل بسكونه المعتاد، وغفا الجميع بين جدران الأمان، حتى دوّى جرس الإنذار كطعنةٍ في خاصرة الهدوء.

فجأةً اجتاحتنا جحافل من الغرباء، مسلّحين، غاضبين، لا وجوه لهم ولا رحمة في عيونهم، دخلوا من كل صوب، كأن الأرض انشقت عنهم، لم نعرف كيف نحتمي، ولا إلى أين نفرّ.

من حاول الهرب... سقط.

ومن حاول الفهم... تأخر.

ومن بقي مكانه... عاش فقط ليشهد الفاجعة.

وسط هذا المشهد العبثي، وُجِدَتْ مرام فتاة فلسطينية في عمر الزهور، تحلم

بحياة بسيطة مليئة بالتفاؤل، بضحكة أم، ودفء وطن، لكن كل شيء تبدد في لحظة حين رأَت المسلحين يقتحمون الأزقة، والرصاص يتطاير كالغضب، أدركت أن الحلم انتهى، لكن الإيمان لم يمت.

لم تنتظر أحدًا، لم تودّع أحدًا، ولم تبكِ حتى، ركضت نحو الجبل كأن شيئًا ما ناداها، أو كأن الجبل كان وطنًا آخر لا يزال حيًّا، بالرغم من الصعوبة التي واجهتها في التسلق لم تتراجع، كانت خطواتها فوق الصخور كأنها تمشي على رماد أحلام محترقة، وكل نبضة في صدرها تنادي: اصمدي.

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

وصـــلت إلـــى منتصـــف الطريـــق، وهنـــاك لاح لهـــا شـــيء غريـــب؛ فجـــوة رماديـــة كأنهـــا ليســـت مـــن هـــذا العـــالم، اقتربـــت منهـــا بحـــذر يـــدها ترتجـــف ووضـــعت كفّهـــا فـــوق حافتهـــا لتشـــعر بـــدفء غيـــر مـــألوف يلامـــس أناملهـــا، همســـت لنفســـها، وصـــوت المدينـــة يحترق في ذاكرتها:

-"لعل خلف هذا الظل يكمن النور."

ثـــم حـــدث مـــا لـــم تتوقعـــه، شـــعور بالـــدوار، تلاشـــى كـــل شـــيء مـــن حولهـــا، وتبـــددت الأصـــوات كأنهـــا غطســـت فـــي بئـــر ســـحيق مـــن الصـــمت، لـــم تمـــر ســـوى لحظـــات حتـــى فتحـــت عينيهـــا لتجـــد نفســـها فـــي بيتهـــا؛ كـــل شـــيء كمـــا كـــان: أمهـــا تعـــد الغـــداء، وأخوهـــا الصـــغير يـــركض خلـــف لعبتـــه، والخـــارج

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

هادئ كما اعتاد أن يكون، للحظة ظنت أنها كانت تحلم لكن شيئًا ما لم يكن على ما يرام، خرجت مسرعة إلى الشرفة ورأت نفس المشهد الذي عاشته قبل أسبوع كامل، نفس الأشخاص، نفس الحركات، نفس التواريخ؛ لقد عادت في الزمن، فجوة الجبل أعادتها إلى أسبوع قبل دخول الغرباء.

بينما كانت تستوعب ما يحدث، أحسّت بيد تلامس كتفها من الخلف، التفتت بسرعة قلبها يكاد ينفجر لكنها وجدت وجهًا مألوفًا: ابن عمها محمد؛ وقبل أن يتكلم، سبقت كلماته وهمست له بقلق واضح:

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

-"محمـد! لقـد حـدث أمـرٌ طـارئ، أعلـم أنـك الوحيــد الــذي سيصـــدقني، أحتــاج مساعدتك فورًا!"

نظر إليها باستغراب وأجاب بنبرة مشوشة:

-"ماذا يحدث يا فتاة؟ لقد أخفتني، هيا تحدثي!"

نظـرت فــي عينيــه مباشــرة كأنهــا تبحــث عــن ثغــرة للــدخول إلــى عقلــه، وقالــت بصوت متقطع:

-"محمـد، بعـد أسـبوع بالضـبط سـيدخل غربـاء إلــى مــدينتنا، مسـلّحون، لا نعـرف مـن أيـن يــأتون، لكــنهم سيحاصــروننا ويحــاولون قتــل الجميع، يريدون الاستيلاء على وطننا!"

ارتبك محمد، تراجع خطوة إلى الوراء، ثم تمتم:

-"مــا... مــاذا قلــتِ؟ هـل جننــتِ يــا مــرام؟ مــا هذا الكلام؟"

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

أمسكت بذراعه وعيناها تمتلئان برجاء ممزوج بالخسوف:

-"أعلم أن الأمر يبدو مجنونًا لكنني مررت بكل ما قلت لك؛ رأيت القتل، والدمار، وهروب الناس، وأنا الآن عدت، هناك فجوة في الجبل أعادتني بالزمن. بقي أسبوع فقط"

محمد: "أسبوع!"

ساد صمت ثقيل لم يعد يُسمع فيه سوى أنفاسهم المتسارعة، كان وجه محمد يعبّر عن صراع داخلي عنيف: بين التصديق والإنكار، بين المنطق وحديث العجائب، ثم قال ببطء:

-"إن كنتِ تقولين الحقيقة، فنحن لا نملك وقتًا."

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

أومأت برأسها، وقالت بحزم:

-"لهـــذا جئـــت إليـــك، نحتـــاج أن نحـــذر النـــاس، أن نســـتعد، أن نكتشـــف مـــن هـــم هؤلاء الغرباء قبل أن يصلوا."

وبالفعـــل بـــدأ محمـــد بجمـــع أصـــدقائه المقـــرّبين واحـــدًا تلـــو الآخـــر، لـــم يكـــن مـــن الســـهل إقنـــاعهم لكـــن إصـــرار مـــرام ونظراتهـــا المشـــحونة بـــالخوف واليقـــين فعلـــت مـــا لـــم تســـتطع الكلمـــات فعلـــه، شـــيئًا فشـــيئًا اقتنعـــوا وبـــدأ كـــل واحـــد مـــنهم بتحـــذير مـــن يعـــرفهم فـــي البلـــدة، تحوّلـــت همســـات الشـــك إلـــى نـــداءات اســـتنفار، بـــدأ الشـــبان فـــي تجهيـــز أنفســـهم بمـــا تـــوفر مـــن أســـلحة وأدوات دفـــاع بدائيـــة، لـــم يكـــن معهـــم جـــيش، ولا دعـــم، فقـــط قلـــوبهم وعقـــولهم

وأمل ضئيل أن يتغير القدر، أما مرام فعادت إلى الجبل مرة أخرى تركض والريح تلفح وجهها، أرادت العودة، أرادت أن تتأكد، أن ترى الفجوة من جديد، لكنها لم تجد شيئًا، لا فجوة، لا ظل، لا دفء، وكأن الجبل أغلق فمه، وكأن الفجوة اختارت أن تمنحها فرصة واحدة فقط، وقفت هناك تتنفس بصعوبة تنظر للفراغ الذي كان، وهمست لنفسها:

-"الآن لا عودة."

بعد مرور أسبوع بدأت طائرات غريبة في التحليق فوق القرية محدثة ضجيجًا لم تألفه الآذان من قبل، علت الهمسات بين السكان لكن الهجوم كان سيد

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

الموقــــف، وقـــف أصـــدقاء محمـــد مـــذهولين يتبـــادلون النظـــرات المرتبكـــة، مـــا قالتـــه مـــرام لـــم يكـــن مجـــرّد خيـــال فتـــاة صـــغيرة بـــل كـــان إنـــذارًا مبكـــرًا لمـــا هـــو آت، لـــم تكـــن تكـــذب، كانـــت تعـــرف، وربمـــا كانـــت الوحيـــدة التي صدّقت إشارات الجبل.

ســـريعًا اســـتعد الأصـــدقاء وجهـــزوا مـــا اســـتطاعوا جمعـــه مـــن أدوات دفـــاع بدائيـــة، لـــم يكـــن أمـــامهم وقـــت كـــافٍ، فالســـماء تنـــذر بمـــا لا يُطمـــئن، وفجـــأة دوّى صـــوت الإنـــذار مجـــددًا، ركـــض الأهـــالي فـــي كـــل اتجـــاه، أصـــوات الصـــراخ اختلطـــت بـــأزيز الطـــائرات والوجـــوه ارتجفـــت بـــين الخـــوف والـــذهول، لـــم تمـــضِ دقـــائق حتـــى تحركـــت مـــرام مـــع أصـــدقائها، أعيـــنهم مشـــتعلة بـــالعزم، نحـــو

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

أولئك الغرباء المسلحين الذين ظهروا على أطراف القرية، يسيرون كأشباح العدم، لم ينتظروا الهجوم بل بدأوه.

اتفقت مرام مع أصدقائها على تجهيز دفاعٍ أقوى من ذي قبل، إذ بدا جليًّا أن العدو هذه المرة أكثر دهاءً واستعدادًا، كانوا يتحركون كمن حضّر كل شيء للاستيلاء على أرض ليست لهم، بدأ الشباب بوضع خطة محكمة ترتكز على تتبّع تحركات الغرباء وجمع ما يمكن من المعلومات، كانت الخطة جريئة محفوفة بالخطر لكنها السبيل الوحيد للمقاومة، وفي طريق عودتها من الجبل، وبينما كانت مرام تعبر الممرّ الحجري المعتاد، خرج لها جنديّان مسلحان من بين

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الأشـــجار، واختطفوهـــا بســـرعة خاطفـــة، لـــم يلحـــظ أحـــد مـــا حـــدث، لكـــن غيابهـــا الطويـــل أثـــار قلـــق ريـــم وســـامي انطلقـــا للبحـــث عنهـــا، تتبّعـــا آثـــار الأقـــدام فـــي الممـــرات حتـــى لمـــح ســـامي جنـــديًا يتســـلل فـــي الجانـــب المعـــتم، باغتتـــه ريـــم مـــن الخلـــف، أغمضـــت عينيـــــه بشـــــالها ليقضـــــي عليـــــه ســـــامي بضـــربة ســـريعة، لـــم يضـــيّعا الوقـــت، ارتـــدى ســـامي زيّ الجنـــدي القتيـــل وأخـــذ ســـلاحه، وتســـلّل نحـــو البنـــاء الـــذي بـــدا كمركـــز احتجـــاز مؤقـــت، داخـــل إحـــدى الزوايـــا المظلمـــة لمـــح مـــرام مقيّـــدة، اقتـــرب منهـــا وهمـــس بصـــوت مـــنخفض يأمرهـــا بالصـــمت ثـــم ألقـــى قنبلـــة صـــغيرة نحـــو الجهـــة المقابلـــة حيـــــث تجمّـــــع الجنـــــود، دوى الانفجـــــار

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

وانهـــارت الأجســـاد، وســـاد الارتبـــاك، فـــي غمـــرة الـــدخان والفوضـــى خـــرج الثلاثـــة مســـرعين نحـــو الخـــلاء يجـــرّون أنفاســـهم بثقـــل النجـــاة، عـــادوا إلـــى القريـــة حيـــث كـــان محمـــد وأنـــس وحنـــين بانتظـــارهم يحملـــون خبرًا صادمًا:

-"بعـــد تحرّيـــات دقيقـــة توصّـــلا إلـــى حقيقـــة أولئـــك الغربـــاء لـــم يكونـــوا ســـوى مهـــاجرين طُـــردوا مـــن دول عـــدة، لا وطـــن لهـــم ولا جـــذور، أرادوا الاســـــتقرار فـــي أوروبـــا لكـــنهم رُفضـــوا لمـــا اعتُبـــر خطـــرًا أمنيًّـــا، فـــاتّجهوا إلـــى فلســـطين يســـعون لانتزاعهـــا بـــالقوة وبنـــاء كيـــان علـــى أنقـــاض شـــعب أعـــزل، زاعمـــون أن هـــذه الأرض منـــذ

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

البدايـــة كانـــت أرضـــهم والآن قـــد عـــادوا لاستردادها."

ســاد صــمت ثقيــل كــأنّ الأرض نفســها قــد كفّــت عــن التــنفّس، قطعتــه مــرام بصــوت حازم:

-"نحتــاج مــن يتســلل إلــى صــفوفهم لنعــرف خططهم قبل أن يُحرق كل شيء."

نظــر الأصــدقاء إلــى بعضــهم بتــردد ثــم تقــدّم سامي وقال بثقة:

-"أنـــا مـــن ســـيتولّى المهمـــة، مظهـــري الجسدي يساعدني، وسأبدو كأحدهم."

تــرددت مــرام لكــن الوقــت لا يســمح بالجــدال أومـــأت برأســـها، فـــانطلق ســـامي بـــين ظـــلال البيــوت وشــقوق الحقــول يــذوب فــي عتمــة الليل.

فــي الأثنــاء نظّمــت مــرام أصــدقاءها إلــى ثلاث مجموعات:

-الأولى لجمع الطعام وتخزينه.

-الثانية لمساعدة كبار السن والأطفال.

-الثالثة للتواصل مع الأهالي وتنسيق التحركات.

ثــم عــادوا إلــى منــازلهم لنيــل قســطٍ مــن الراحــة اســتعدادًا لصــباحٍ جديــد لكــن الســلام لم ينتظرهم.

مــع أول خيــوط الفجــر دوى انفجــارٌ عنيــف هــزّ أطــراف القريــة تبعــه قصــف آخــر ثــم ثالــث، ارتجّــت الأرض واهتــزت الجــدران، وتحولــت الســكينة إلــى فوضــى، ركــض النــاس فــي كــل اتجــاه، اختلطــت صــيحات الأطفــال بأصــوات التكبيــر والــدعاء، وجثــا

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

البعض أرضًا باكيًا يرفع يديه إلى السماء:

-"اللهم كن معنا، لا ملجأ إلا أنت."

وسط الدخان والدموع توجّهت مرام إلى نقطة الالتقاء التي اتفقوا عليها مسبقًا، وجدت الجميع هناك عيونهم تبحث عنها كأنهم وجدوا فيها بوصلتهم الأخيرة، نظرت إليهم بثبات وقالت:

-"اللحظة جاءت، استعدوا."

لم تكتفِ مرام بإعطاء الأوامر بل أمسكت بسلاح كانت قد احتفظت به منذ الاشتباك الأخير، كانت يداها ترتجفان قليلًا، لا من الخوف بل من ثقل المسؤولية لكن عينيها كانتا ثابتتين

تقـــرآن الأرض والســـماء معًـــا، قالـــت وهـــي تجهّز سلاحها:

-"لـــن أدع أحـــدًا يقاتـــل عنـــي، هـــذه أرضـــي، وهؤلاء أهلي."

انطلقـــت تقـــود المجموعـــة نحـــو نقطـــة التمركـــز تتقـــدّمهم كمـــن يعـــرف الطريـــق وكأنهـــا تـــدربت علـــى هـــذا العمـــر كلّـــه، اختبـــؤوا خلـــف الجـــدران المهدّمـــة، تســـلّلوا بـــين المـــزارع حتـــى اقتربـــوا مـــن الهـــدف، بإشـــارة مـــن يـــدها بـــدأ الهجـــوم الخـــاطف، أطلقـــت مـــرام النـــار نحـــو أحـــد الجنـــود، فأصـــابته فـــي الكتـــف، بينمـــا ســـقط آخـــر تحـــت قذيفـــة ألقاهـــا محمـــد، لـــم يتوقـــع العـــدو هـــذا الهجوم المنسق، فارتبك، وتراجع.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

أما مرام فكانت تتحرّك بين المقاتلين، تسند الجرحى، وتطلق النار حين يلزم، وتصرخ:

-"ثبّتوا أقدامكم، لن يمرّوا"

كانت تلك اللحظات كأنها خُلقت منها، وخلقت لها.

أما سامي فقد أدار حربًا نفسية من جهة أخرى، أطلق أصواتًا وهمية وألقى الحجارة محدثًا ضجيجًا أربك الجنود، ظنّوا أنهم تحت هجوم من أكثر من جهة، تملّكهم الذعر وبدأوا بالانسحاب العشوائي دون أن يدركوا أن من هاجمهم ليس سوى شباب قرية لكنهم حملوا في قلوبهم ما لا يُقهر.

كـان الصــباح هــذه المــرة مختلفًــا؛ لا صــوت للعصــــــافير، لا ضـــــحكات أطفـــــال فـــــي الطرقـــات، فقـــط بقايـــا أبنيـــة تتنـــاثر كجثـــث بـــلا أســـماء، وغبـــارٌ يخنـــق الرؤيـــة والأمـــل معًا.

مــرام تمشـــي بصـــمت بـــين الركـــام، خطواتهـــا متــــرددة وملامحهــــا غارقــــة بــــين الــــذهول والحســرة، لــم تعــد تعــرف مــن تواســي، مــن تُعيــد لــه الأمــل، ومــن تُقنعــه أن الحيــاة ســـتعود كمـــا كانـــت، تعالـــت أصـــوات الصـــــراخ، واختلطـــــت ببكـــــاء الأرامـــــل، ونـــداءات تبحـــث عمّـــن فُقـــد تحـــت الأنقـــاض، لا حيلـــة لهـــم الآن ســـوى رفـــع الأكـــفّ إلـــى الســـــماء، ومناجـــاة الله أن يبقـــي لهـــم مـــا تبقى من الروح.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

وفجأة ركض نحوها طفل صغير، شعره كيرلي أبيضاني حلو لم يتجاوز العاشرة، وعيناه تفيض بالخوف كأن العالم كله يسقط من حوله، ارتمى في حضنها وأمسك بملابسها بقوة، وبكى كما لم تبكِ عيون من قبل، قال بتلعثم مرتجف:

-"م... مه... مهلاً! أين أمي؟ وأين حمزة؟! كانوا في البيت، أمي كانت تُعد لنا الطعام، خرجت ألعب مع أصدقائي، وعندما عدت لم يبقَ شيء، حتى رائحة بيتنا اختفت، أنا جائع، وخائف، وأختي لم أجدها، اختفوا كلهم"

ضمّته مرام كما لو كان أخاها، ربّتت على شعره محاولة تهدئته لكن قلبها كان يرتجف من الداخل، يتصدّع مع كل كلمة ينطقها.

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

لـيلاً خـيّم الصـمت علـى المكـان، ولـم يبـقَ غيـر صـوت القـذائف البعيـدة، ومعـه صـوت الأنفـاس الثقيلـة لمـن حـاولوا النـوم علـى أمـل أن يُصـبح الغـد مختلفًـا، لكـن فـي غفلـة مـن السـكون، لمـح أنـس ظـلًّا يتسـلل بـين الحجـارة يقتـرب مـن مـرام النائمـة بخطـى شـيطانية، يحمـل خنجـرًا مُخفيًّـا تحـت عباءتـه، وبـدون تفكيـر أطلـق أنـس رصاصـة اخترقـت جسـد الغـادر، وأسـقطته أرضًـا قبـل أن يمـدّ يـده إليهـا، ركـض نحـو جثتـه، التقط سـلاحه الـذي كـان يخفيـه، نظر إليه ثم تمتم بصوت خافت:

-"سـامي، سـأكمل مـا بدأتَـه، لـن أتـركهم يمسون شعرة منّا بعد اليوم."

في الصباح استيقظت مرام فزِعة على صوت الطلقات، فتحت هاتفها لتجد خبرًا يُمزّق قلبها أكثر:

-"دولة عظمى تعلن رسميًّا دعمها الكامل للكلاب المسلحة، وتؤكد: فلسطين ليست أولويتنا."

كان وقع الكلمات كطعنة في ظهر الحقيقة، مرارة القهر لا توازيها كلمات، كيف تُوصف أرضك بأنها تمرّد، وأنت تحاول فقط أن تبقى حيًّا؟

ومع إعلان الحصار، أُغلقت جميع الطرق المؤدية إلى الداخل، كل من حاول الدخول إلى فلسطين قُتل دون أن تُرمش عين القاتل وكأنهم أعدّوا سيناريو موت جماعي يُنفَّذ دون رحمة.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

مــرّت الأيــام؛ الطعــام بــدأ ينفــد، الأطفــال يئنّــون مــن الجــوع، الجرحــى ينزفــون دون دواء، والمستشــفيات لــم يتبــقَّ فيهــا مــا يمكــن بــه إنقــاذ أحــد، ورغــم كــل شــيء كــان فــي عيــون مــرام ورفاقهــا بريــق لا يُكســر، إنــه الأمــل حــين يُولــد مــن بــين الــدماء، الصــحافة كانــت فــي كــل مكــان مــن الــدمار ينقلــون أصــواتهم للعــالم الأصــمّ، ذاك العــالم الذي لا يعرف للإنسانية صوتًا.

قصــف كــل يــوم، وكــل ســاعة، وكــل دقيقــة، المســاجد تُهــدم، المستشــفيات تُقصــف، والأمهــات يعــدن إلــى البيــوت بــلا أطفــال، أو لنقــل بــلا قلــوب، ولكــن رغــم هــذا كلــه لــم تنكســر العــزائم، ولــم يُخفــض أحــد مــنهم رأسه، فهم كما قال الأصدقاء ذات يوم:

-"لـــن يرضـــوا أن تبقـــى "الكـــلاب" تســـرح في شوارعهم حرّة."

اســـــتيقظت مــــرام علــــى صــــوت هاتفهــــا كعادتهــــا منــــذ أن صــــار النــــوم موتًــــا مــــؤجّلًا؛ كــــل ليلــــة يــــداهمها ذلــــك الحلــــم نصــــف المــــذبوح، وجــــوه بــــلا ملامــــح، قصــــف بــــلا صــــوت، وصــــراخ مكتــــوم لا يصــــل حتــــى إلــــى قلبهــــا، لكــــن هــــذا الصــــباح لــــم يكــــن هنــــاك اتصــــال ولا رســــالة، بــــل خبــــر عاجــــل، خطّــــهُ تطبيق الأخبار ببرودٍ لا يليق بالدم:

-"استشــــهاد خمســــة صــــحفيين اليــــوم الأحــــد، فــــي غــــارات إســــرائيلية متفرقــــة علــــى قطــــاع غــــزة، ليرتفــــع عــــدد الصــــحفيين الــــذين قــــتلهم الإرهــــاب منــــذ بــــدء الإبــــادة إلــــى أكثــــر مــــن 222صحفيًا."

وبعد هذا الخبر مباشرة كُتِبَ:

-"عاجـــل: 7شـــهداء وعـــدد مـــن الجرحـــى جـــراء قصـــف إســـرائيلي اســـتهدف خيمـــة تـــؤوي نـــازحين قـــرب مدرســـة الماجـــدة وسيلة غرب مدينة غزة."

حـــدّقت مـــرام فـــي الشاشـــة وكأنهـــا تلقّـــت عـــدة طعنـــات فـــي وقـــت واحـــد هـــي الأخـــرى، فحتـــى الصـــحفي أنـــس الشـــريف الـــذي كـــان ينقـــل الأخبـــار إلـــى العـــالم بـــدون كلـــل ولا ملـــل قـــد استشـــهد، تصـــلّبت أطرافهـــا، تجمّـــدت اللحظـــة وكـــأن الوقـــت نُـــزع مـــن عقـــارب ساعته.

-الصحفي عزيز الحجار، زوجته، أطفاله.

-نـــور قنـــديل، خالـــد أبـــو ســـيف، طفلتهمـــا الصغيرة.

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

أسماء كُتبت بالحبر لكنها طعنتها كالسكاكين، كل الأسماء خرجت من الشاشة وقفت صفًا أمامها، لا تنطق، فقط تحدّق ثم تختفي في رماد لا يُمكن مسحه.

فُتحت الفجوة لا التي على الحائط بل التي في صدرها، جلسَت على الأرض، احتضنت الهاتف كأنه جسد شهيد، وانهارت، لم تبكِ، فالبكاء ترفٌ لم تعد تعرفه، كل ما فعلته هو أن بدأت بجمع صورهم، مقاطعهم الأخيرة، أصواتهم، نصوصهم القديمة، حاولت أن تكتب شيئًا يليق بهم، مقالًا ربما أو رثاءً بسيطًا، لكن الكلمات خانتها، دفنت وجهها بين صفحات دفترها، وهمست:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"حتى الكلمة استُشهدت معهم."

دخل أصدقاؤها الغرفة، رأوها، أرادوا تهدئتها لكنها كانت تحترق بصمت، لم يستطيعوا لمسها، فالحزن كان أعمق من الأيدي؛ فأصابهم الغضب، الغضب الذي يُحوّل الحزن إلى سلاح، انقسموا فيما بينهم: فريق يتقصى مواقع العدو، وآخر يجمع الأسلحة، وثالث يُعدّ رسائل مصورة للعالم الذي ما زال يغطّ في صمته العميق.

أما في الجانب الآخر من المدينة، كان سامي وأنس يتعقبان أخبار التسلل الإسرائيلي، يتصفحان خرائط القصف، يبحثان عن نقطة ضعف، عن فرصة لردّ الضربة.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

-"لا نملك دبابات، لكن نملك أرواحًا لم تعد تخاف الموت" ...قال سامي.

وفي المساء حين عادت مرام إلى الفجوة الرمادية في الحائط، جلست أمامها كما تفعل كل مرة، وضعت دفترها وبدأت تكتب "زيارات رمزية" لأرواح الصحفيين، لم تكن تكتب بأسماء فقط بل بأصوات، بملامح، بحكايات لم تكتمل:

عزيز الحجار: "لم أمت، لقد تحوّلت إلى صورة لن تُمحى."

نور قنديل: "أخبريهم أني كتبت حتى النهاية ثم كتبت دمي."

خالد أبو سيف: "قلنا الحقيقة فاغتالونا، لكن الحقيقة لا تُقتل."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

الطفلة: "أمي لم تمُت، فقط اختبأت في الصورة الأخيرة."

وضعت القلم جانبًا، رفعت رأسها ونظرت نحو الفجوة كأنها تنتظر منها وعدًا أو بصيصًا، ثم همست:

-"قولي لي أيتها الفجوة: أيّ جُرمٍ ارتكبه الصحفي كي يُقصف وهو يُوثّق القتل؟ هل صارت الكاميرا سلاحًا؟ أم صارت الحقيقة عدوًا؟"

وردّ عليها صدى صامت من داخلها:

-"حين تموت الكلمة، تكون الإبادة قد اكتملت."

قامت مرام من مجلسها ببطء وكأنها تحمل على كتفيها وجوهًا كثيرة، دخلت غرفتها، فتحت دفترًا جديدًا وكتبت في صدره العنوان:

-"(كفـــنٌ ورقـــيّ)... سلســـلة لتوثيـــق كـــل صـــحفي قُتـــل مـــن أجـــل أن يـــرى العـــالم الحقيقة."

ثم كتبت في أولى صفحاته:

-"222 شـــهيدًا... هـــذا لـــيس عـــددًا بـــل لائحة شرف لكلماتٍ لم تُكمل الجملة."

وفي أسفل الصفحة بخطٍ صغير مهتز:

-"أنـــا مـــرام، أنـــا أكتـــب لأنـــتقم مـــن أجلهـــم أو لألحق بهم."

وضـــعت مـــرام الهـــاتف جانبًـــا، لـــم تعـــد الأخبـــار بحاجـــة للقـــراءة، صـــارت تُـــنقش علـــى جـــدران القلـــب، علـــى زجـــاج النوافـــذ المتفحمـــة، علـــى جبـــين كـــل طفـــل نـــائمٍ فـــي حضن قبرٍ بلا نعش.

نظـــرت إلـــى الخـــارج؛ الســـماء لا تـــزال كمـــا كانـــت، زرقـــاء رماديـــة تشـــبه دخانًـــا يتصـــاعد مـــن قلـــب مدينـــة تُـــذبح كـــل يـــوم بصـــمت، لـــم يكـــن هنـــاك غـــيم، ولا طيـــور، فقـــط فـــراغ ثقيـــل يعلّـــق الـــزمن بـــين قذيفـــة وأخـــرى، جلســـت علـــى الأرض، لـــم تكـــن تبكـــي بـــل تُحصـــي الصـــمت كمـــا تُحصـــى الأرواح، كأنهـــا تحفـــظ أســـماء الشـــهداء لتردّدهـــا لاحقًـــا علـــى لحـــنٍ لـــم يُكتـــب بعـــد، ولـــم يُعـــزَف بعـــد، وربمـــا لـــن يُســـمع أبـــدًا، فتحت دفترها وكتبت:

-"كـــانوا يكتبـــون فكتبـــت الحـــربُ أســـماءهم،

كـــانوا يحملـــون الكـــاميرا فحملـــت الطـــائرات عنوان منازلهم."

سكتت لحظة ثم أضافت بخطّ عريض:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"هــــذه ليســـــت نهايـــــة الصـــــحفيين بـــــل استشهادهم بداية التحرر."

أغلقـــت الـــدفتر ونهضـــت، تركـــت يوســـف الـــذي احتضـــنها فـــي اليـــوم الســـابق كأنمـــا يحتضن ذاكرة وطن في مكان آمن.

لـــم تكـــن لـــديها رفاهيـــة البقـــاء، فموعـــدها مـــع المعركـــة قـــد حـــان، فـــي موقـــعٍ مهجـــور بـــين الأنقـــاض، تجمّعـــت مـــع أصـــدقائها، وجـــوههم شـــاحبة مـــن الســـهر، أعيـــنهم مـــلأى بـــالعزم، كـــانوا يعرفـــون أن كـــل دقيقـــة يقضـــونها هنـــا قـــد تكـــون الأخيـــرة لكـــنهم لـــم يتراجعـــوا، راجعـــوا الخطـــة، وزّعـــوا الأدوار وأخـــذوا احتياطـــاتهم؛ أنـــس كعادتـــه كـــان العقـــل البـــارد فـــي وجـــه النـــار، ســـامي وجهـــه صـــلبٌ كـــالحجر لكـــن قلبـــه يشـــبه

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

نبض المآذن وقت الأذان، انطلقوا، لم يكن الهجوم الأول لهم لكن هذه المرة شيء ما كان مختلفًا؛ الغضب ليس وحده من كان يقودهم بل الدم الذي لم يجف بعد على الكاميرات المحطّمة، وبينما هم يزحفون تحت الظلال، سمع أنس صوتًا لا يُخطئه طنين الصاروخ يهمس بالموت من بعيد، صرخ فيهم:

-"اختبئوا فورًا! القصف قادم"

ركضوا نحو الجهة المعاكسة، وبمعجزةٍ نجا الجميع، وحين أفاقوا من الدخان وجدوا أنفسهم مباشرةً خلف موقع العدو، نظر بعضهم إلى بعض، لحظة صمت قصيرة ثم:

-"هيا، من أجل رُبى، من أجل عزيز، من أجل كل الأسماء."

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

تقـــدموا، أطلقـــوا رصاصـــهم، ألقـــوا قنـــابلهم، اقتحمـــوا النقطـــة وقلبـــوا المـــوازين، قتلـــوا مـــا اســـتطاعوا واســـتعادوا أســـلحة كانـــت لنـــا وسُـــرقت ثـــم رددوا بصـــوتٍ واحـــدٍ مرتفـــعٍ مزّق السماء الرمادية:

-"نحـن لـن ننهـزم، وسننتصـر علـيكم عـاجلاً أم آجلاً، فلا تحلموا بالفوز علينا."

وقـف سـامي إلـى جانـب أنـس، ابتسـما ابتسـامة النصـر، ليسـت تلـك النشـوة المتغطرسـة التـي يعرفهـا الجنـد بـل ابتسـامةٌ تعبـق بـالحزن، بالفخر، وبالدمع الذي تأجل.

-"فخور بهم"... قال أنس.

-"بل نحن نتعلم منهم كل يوم"... أجاب سامي.

ثـم انطلقـوا مـن جديـد، فالقتـال لـم ينتـهِ... ومرام؟

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

مرام ستعود لتكتب، لأن المعركة في الميدان لا تكتمل دون معركة الكلمة.

كل يوم نفس الأخبار: "الاحتلال يستهدف كل شيء حتى الأشياء التي ظنّ الناس أنها لا تُقصف، بئر الماء، المدرسة، وجدران المقابر، لم يبقَ شيء لم يُصَب حتى موتانا لم يعودوا في مأمن."

جلست مرام في ركن الغرفة تتابع هاتفها كمن يحاول أن يراقب زلزالاً وهو يضرب بيته، لم تكن الأخبار جديدة لكن ثقلها يتضاعف في كل مرة، العالم كله يشاهد، الناس تأكل الفشار وتشرب الشاي وكأنهم أمام فيلم وثائقي لا مجازر بشرية، كأنّنا لسنا بشراً، كأنّنا

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

مشـــاهد محايـــدة فـــي شاشـــة ســـوداء تمضـــي كمـــا يشـــاء المُخـــرج وتُنســـى كمـــا تُنســـى الإعلانـــات، حتـــى مـــن يُفتـــرض أن يكونـــوا "إخـــوة الـــدم" لا زالـــوا يشـــاهدون بصـــمت، ضـــمائر العـــرب مثـــل شاشـــاتهم مشـــرقة مـــن الخـــارج، قاتمـــة مـــن الـــداخل، وبينمـــا كانـــت مـــرام تغـــوص فـــي حزنهـــا الصـــامت، عـــادت فـــي ذاكرتهـــا إلـــى قصـــة يوســـف عليـــه الســـلام حـــين ألقـــاه إخوتـــه فـــي البئـــر وزعمـــوا أنـــه مـــات، خُـــذل يوســـف مـــن أقـــرب النـــاس إليـــه ثـــم اشـــتراه الغريـــب وعـــانى حتـــى صـــار ملكًـــا، قالـــت مـــرام لنفســـها وهـــي تحـــدق فـــي الفـــراغ الرمـــادي الخـــارج مـــن نافذتها:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"فلسطين اليوم هي يوسف، وإخوتها هم العرب، خانتنا الدماء، ألقونا في البئر وادّعوا الحزن، بينما يبيعوننا في العلن، لكن كما رفع الله يوسف ستنهض فلسطين، ستصبح ملكة فوق الأرض، بعد كل هذا الظلم، النهايات لا يكتبها الطغاة بل يكتبها الله."

لم تنتبه مرام لوجود العم يوسف خلفها، الشيخ العجوز الذي عاش النكبة ويعيش اليوم النكسة، جلس بجوارها دون أن تقول له شيئًا. بعد لحظة صمت طويلة، قال بصوته المنهك:

-"زمان كنا نحمل مفاتيحنا، نحلم نرجع بيوتنا، وها أنتم اليوم تحملون جثامين أطفالكم."

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

كلماتــه اخترقــت قلبهــا بــلا اســتئذان، رمقتــه بنظـــرة طويلـــة ثـــم نظـــرت إلـــى دفترهـــا وكتبت فيه:

-"هــل نحــن جيــل الشــهادة فقــط؟ أم ســنكون جيل الشهادة والكتابة؟"

صوتُ من الخارج قطع هذا العمق.

-"مرام! مرام! هل تعلمين ما حدث؟"

كانت ريم صديقتها تطرق الباب.

-"مــرام، ارتــاحي قلــيلاً، ســنكمل مهمتنـــا لاحقًا، الشباب بانتظارنا."

أغلقــت مــرام دفترهــا ونهضــت، التفتــت إلــى الشيخ وقالت:

-"إلى اللقاء يا جدي، لا تنسانا من دعائك."

أجابها: "لن أنساكم، أنتم آخر الذاكرة."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

خرجت مع ريم لكن داخلها لم يهدأ، في تلك الليلة حين حاولت أن تغفو، هجمت ذاكرتها عليها كما تفعل الطائرات، تمرّدت الذاكرة على عقلها، مشاهد جاءت واحدة تلو الأخرى بلا ترتيب، بلا منطق كأن الألم قرر أن يضرب دفعة واحدة:

-مشفى المعمداني، الليل ممزق بالصراخ، رضيع يُنتشل بلا رأس، حي الصفطاوي، القصف يسبق الاسم: عزيز الحجار، ثم صمت طويل كأن الحجر انفجر من داخله، دير البلح، سريرٌ بلا طفلة، أم اسمها نور تُطفئها قذيفة، ثم صمت طويل.

لـــم تعلـــم مـــرام إن كانـــت تحلـــم أم تصـــحو؟ هـــل مـــا تـــراه تخيّـــل أم ذاكـــرة؟ هـــل هـــذا عقلها؟ أم عقل وطن يحتضر داخلها؟

لـــم تعـــد تميّـــز؛ النـــوم لـــم يعـــد راحـــة، ولا اليقظـــة نجـــاة، لكنهـــا كانـــت تعـــرف أمـــرًا واحـــدًا: مـــا زال الأطفـــال فـــي الخـــارج، والكلمة لم تُكتب بعد.

★★★

"دفتر رُبى... حكايات لم تكتمل"

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

استيقظت مرام مرتعبة من هول الكابوس الذي زارها ليلًا، أنفاسها مضطربة، قلبها يطرق صدرها كما لو أن هناك غارة داخلها، أدركت أن النوم لم يعد راحةً بل صار موتًا مؤجلًا.

جلست قرب النافذة الصغيرة التي لم يبق منها سوى نصف زجاج مشقوق، أشعة الفجر تسللت كأنها تبحث عن شيء، أو أحد ما زال على قيد الحياة، لكن الحياة هنا محض تشبيه.

رأت الجيران يقفون يترقبون السماء، لا في انتظار مطر بل علّ طائرة مساعدات تصل لكن لا شيء يصل، العالم كله يشاهد ولا يتحرك؛ الصحافة تُكذّب، المنظمات تصدر بيانات دون فعل،

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

والعالم أعمى وأصم كأن هذا الدم لا لون له، في زاوية الزقاق، كانت طفلة تمسك بهاتف محمول وتصور فيديو تبكي فيه وتناشد العرب:

-"ساعدونا، نريد أن نعيش فقط."

مرام أرادت احتضانها لكنها لم تفعل.

وفي اليوم التالي صمت كل شيء، الطفلة استُشهدت في قصفٍ استهدف الحي، رحلت وبقي هاتفها تحت الركام، وربما مقطعها الأخير ينتشر الآن في العالم الذي يأكل الفشار أمام مأساتنا.

في دفترها كتبت مرام:

-"نحن لا نموت، نحن فقط نتبرع بدمنا لأمةٍ ماتت ضمائرها."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

خرجـــت مـــن ملجئهـــا إلـــى الفجـــوة، تلـــك الفتحـــة التـــي أحـــدثها صـــاروخ ولـــم يُغلقهـــا الـــزمن، جلســـت بقربهـــا كأنهـــا تُحاورهـــا كـــل يوم، على الحائط كتبت بخطّ متوتر:

-"لســـنا بحاجـــة لمـــن يبكـــي علينـــا بـــل لمـــن يستيقظ معنا."

ثم فتحت دفترها وجلست تهمس نحو الفراغ:

-"قـــولي لـــي أيتهـــا الفجـــوة: أي جـــرمٍ ارتكبـــه الصـــحفي ليُقصـــف وهـــو يوثّـــق الحقيقـــة؟ هـــل صـــارت الكـــاميرا ســـلاحًا؟ هـــل صـــار نقـــل الألـــم خيانـــة؟ ولِـــمَ هـــذا الصـــمت؟ ألأن الحقيقـــة بشـــعة لدرجـــة لا تُحتمـــل أم أنكـــم لا تريـــدون الاعتـــراف بإنســـانيتنا أصلًا؟"

ردّ الصدى البارد من الفجوة:

-"حين تموت الكلمة، تكون الإبادة قد اكتملت."

وحين عادت مرام إلى قريتها، جلست إلى جوار العم يوسف شيخ في السبعين يحمل على ظهره ذاكرة نكبة 1948، قال لها بصوتٍ مجروح، وعينين تعرفان الوجع:

-"في 48 كانوا يخفون الكارثة، اليوم يصوّرونها ويقتلون من يصوّر."

تجمدت مرام؛ هل سمعها تتحدث للفجوة؟ أم أن جراح النكبتين تنطق بلسانٍ واحد؟ في اليوم التالي تكرر كل شيء؛ قصف، أسماء، دماء، ثم دفتر، قرأت مرام في تقرير:

- "13430شهيدًا من الأطفال،

39,000ألف طفل يتيم في غزة،

61,000شـــــهيد مســــجل بشــــكل رســــمي بــــوزارة الصــــحة بغــــزة، آلاف المفقــــودين، أكثــــر مــــن 200ألــــف مصــــاب، أعــــداد لا تُحتمل."

كتبــت بجــواره: "أعلــم أنــك أيهــا القــارئ تجــاوزت الأرقــام كمــا تتجــاوز أي أمــر قــد يقلقــك، لكــن اعلــم أنهــم ليســوا أرقامًــا بــل أرواح نُزعــت مــن كتــبهم، مــن أحلامهــم، من مقاعدهم الصغيرة."

لكــن مــرام لــم تكــن الوحيــدة التــي تقــرأ، ربمــا أنــت الآن خلــف شاشــةٍ مــا تــرى طفــلاً يُنتشــل مــن تحــت الأنقــاض، تغلــق هاتفــك لا تقــوى علــى الأكــل ثــم تفتحــه مــن جديــد لتكمــل بقيــة الفيــديوهات، لعــلّ قلبــك يُســتعاد أو ضميرك يُبعث.

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

وفـــي إحـــدى الليـــالي زارت مـــرام طفلـــة شـــهيدة اســـمها "رُبـــى" كانـــت تحمـــل دميـــة محترقة لكنها لا تزال تبتسم، قالت لها:

-"فقط، احفظي اسمي لا أريد أن أنتهي هكذا."

اســـتيقظت مـــرام والـــدموع علـــى وجههـــا ثـــم بـــدأت تُعـــد دفتـــرًا جديـــدًا، اســـمته "دفتـــر رُبـــى... حكايـــات لـــم تكتمـــل" ملأتـــه برســـومات الأطفـــال، أســـماءهم، أعمـــارهم ووصـــاياهم القصـــيرة إن وُجـــدت، وضـــعت فيـــه رســـائل مـــن صـــمتهم، ومـــن أمهـــاتهم، ومـــن ألعـــابهُم، وفـــي الصـــفحة الأخيـــرة كتبت:

-"لا تقلقـــوا يـــا أطفالنـــا، أنـــتم الآن فـــي مكـــان آمـــن، ونحـــن قـــادمون، فقـــط القليـــل مـــن الصبر."

فصل النساء "هنّ الوطن
حين يغيب الوطن"

لماذا يا ابنتي؟ ألسنا أمهات وأخوات؟ ألسنا من نلد لهم الحياة؟ أليس وجعنا وجعهم؟ لماذا تركوني أحترق في الخيمة بينما أنا أطبخ لهم؟ لماذا؟ لماذا؟

مرام لم تعد تفهم شيئًا، هل هذا صوت حلم آخر؟ هل هذه امرأة من بين الضحايا؟ أم أن قلبها صار مرآة لكل من رحل؟ اقتربت منها وقالت:

-"يا خالتي لا تحزني، فنحن فقط نتبرع لأمةٍ فقدت إنسانيتها، وسيَجزينا ربنا على صبرنا وتبرعنا هذا، ولا تقلقي، فهذه الأرض ستحيا من جديد."

جلست مرام تُدوّن في دفترها فصلًا جديدًا، فصلًا يشبه وجوه النساء في غزة، كتبت في أعلاه:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"8900 شهيدة... ولسنا أرقامًا؛ نحن من بقين حين فرّ الجميع، نحن من ولدن الشهداء وربين الأحرار."

ثم بدأت تسرد:

١.أم الشهيدين

كانت أم محمد تجلس أمام صورة ابنها الأكبر الذي استشهد في العدوان السابق ثم نظرت إلى فراش ابنها الأصغر الذي ودّعها قبل ساعات فقط ليذهب لإحضار الماء ولم يعد، حين سُئلت كيف تحتمل هذا الكم من الفقد، قالت:

-"أنا أمّ لكن لست فقط لأبنائي، أنا أمّ لكل شاب يحمل بندقيته الآن."

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

2.عروس الفستان الأبيض

سارة كانت تُعدّ لزفافها بعد أسبوع، لم تكن تطلب الكثير فقط أن تبقى حيّة لتفرح، في اليوم الذي خططت فيه لاختيار الفستان، انهار الحيّ بالكامل، لم يُعثَر على سارة إلا بعد يومين تحت الأنقاض متمسكة بعلبة صغيرة بداخلها بطاقة الدعوة.

★★★

٣.الجدة التي لم تنم منذ أسبوع

الحاجة خديجة 74عامًا تمشي على عكازين وسط الركام، كلما سألوها إلى أين، قالت:

-"أبحث عن حفيدي، كل من خرجوا وجدوا أحبتهم إلا أنا."

لم يكن لحفيدها سوى ثلاثة أعوام، وكان يناديها "ستي قمر".

★★★

٤.توثيق الألم بدل الطحين

لمـــا 16عامًـــا، كانـــت تـــتعلم مـــن أمهـــا كيـــف تصـــنع الخبـــز فـــي التنـــور، فـــي ليلـــة القصـــف ســـقط التنـــور واحترقـــت أمهـــا بداخلـــه، لمـــا لـــم تبـــكِ بـــل أمســـكت بكـــاميرا هاتفهـــا وبـــدأت توثق، قالت وهي تمسح دموعها:

-"أمـــي علّمتنـــي كيـــف أطعـــم النـــاس، وأنـــا سأُريهم من قتلها."

★★★

توقفـــت مـــرام عـــن الكتابـــة قلـــيلًا ومســـحت دموعها، ثم كتبت بخطّ مرتجف:

-"نحـــن النســـاء نولـــد الحيـــاة فنمـــوت بهـــا، نُرضـــع أبناءنـــا الأمـــل، ونـــتكفّن بالصـــبر، لا نصرَ يُكتب إن لم يُكتب باسمنا."

ثـــم أغلقـــت الـــدفتر وكتبـــت فـــي الصـــفحة الأخيرة:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"سـلامٌ علـى صـدوركنّ التـي حملـت الـوطن حـين فـرّ منـه الرجـال، سـلامٌ علـى كـل امـرأة فـي غـزة، كـلّ شـهيدة، كـلّ أم، كـلّ أخـت، كـلّ خالـة وجـدة، كـلّ مـن أمسـكت على الجمر، لتبقى فلسطين."

★★★

"الصحفيون الشهداء...
حين تُقتل الكلمة"

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

بعد كل هجوم تفتح مرام دفترها، ذلك الدفتر الذي أصبح شاهدًا على شتات من بقي، وحافظًا لأسماء من رحلوا.

سجّلت فيه فصلًا عن الأطفال (13430 شهيدًا)، كتبَت فيه:

-"هؤلاء لم يكونوا مشاريع حياة بل مشاريع نورٍ أُطفئت."

وسجّلت فصلًا عن النساء (8900 شهيدة)، كتبت:

-"النساء لا يُغادرن الحياة بل يُصبحن أمّهات للأرض."

ثم فصلًا عن الأشخاص المحترقين في الخيام وهم على قيد الحياة.

ثم عن النازحين الذين صاروا غرباء حتى داخل الوطن.

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

ثم فصلًا عن الأطباء والمستشفيات المستهدفة، حيث كتبَت:

-"صار علاج الحياة هو الشهادة."

ثم فصلًا أخيرًا عن الصمت العربي والعالمي حيث ختمته بسؤال:

-"كم من الوقت يمكن للضمير أن يبقى تحت الركام؟"

لكن مرام في لحظة تأملٍ حزينة، أدركت أن هناك شريحة أخرى تُستهدف ليست كالباقين، إنهم الذين يُوثقون كل ذلك، الصحفيون، فقررت أن تكتب لهم فصلًا منفصلًا لا يشبه غيره، تكتبه بالكلمات التي لم تعد تُنشر، وبالأصوات التي قُطعت في منتصف البث، كتبت المقال بعنوان:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"222 صحفيًا... هذا ليس عددًا بل لائحة شرف لكلماتٍ لم تُكمل الجملة."

نسخت منه عشرات النسخ ووزّعتها على طلاب المدرسة لتعلّمهم أن الحقيقة ليست خبرًا عابرًا بل دمًا يُسفك لأجل الكلمة، وفي الصفحة الأخيرة من المقال كتبت مرام:

-"هذا كفنٌ ورقيّ... من أراد أن يعرف كيف تموت الحقيقة، فليقرأ هذا الدفتر قبل أن يحترق."

ثم أغلقت الدفتر لكنها لم تُغلق القصّة لأنها قررت أن تبدأ سلسلة جديدة، سلسلة بعنوان:

-"(كفنٌ ورقيّ)... توثيق الأرواح التي كتبت الحقيقة بدمها"

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

بعد أن أغلقت مرام دفترها الذي ختمته بتوثيق كل ما حدث، خبّأته في مكان لا يعرفه أحد سواها ثم انضمت إلى أصدقائها الذين كانوا يخططون لهجوم جديد للحصول على مزيد من الأسلحة، لكن فجأة داهمهم الجنود فقد تسرّبت إليهم المعلومات، وسرعان ما تبيّن أن سامي صديقهم كان جاسوسًا ينقل أخبارهم، فقتلوه بلا رحمة.

تفرّق الأصدقاء في لحظة، كلٌّ منهم اتخذ اتجاهًا مختلفًا حتى لا يُقبض عليهم معًا، لكنهم سرعان ما التقوا مجددًا في مكان بعيد عن الضوضاء، بعيد عن العيون، وهناك ولأول مرة بكت مرام وبكى معها الجميع، لقد فقدوا صديقًا عزيزًا كان

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

يـؤمن أن التحريـــر لـــيس حُلمـــاً بـــل واجبًـــا، وهـــم فـــي حـــزنهم التحـــق أنـــس بالمجموعـــة مصـــابًا فـــي ذراعـــه يتقـــدّم نحـــوهم بصـــعوبة، فزعت مرام وركضت إليه تصرخ:

-"أنس! ماذا حدث؟!"

أجاب بصوت مرتجف لكنه ثابت:

-"نصبوا لنا كمينًا، كنت أغطي انسحابكم."

أســـرعت ريـــم لإحضـــار ضـــمادة مـــن حقيبتهـــا الصـــغيرة، بينمـــا جلـــس يوســـف بجـــواره يحـــاول تهدئتـــه رغـــم ارتجـــاف صـــوته ويديه، وبينما هم يُسعفونه، همس أنس:

-"قبـــل أن أُصـــاب، اكتشـــفت أمـــرًا خطيـــرًا، كـــانوا يخططـــون لهجـــوم شـــامل علـــى المدرســـة التـــي لجـــأ إليهـــا العشـــرات مـــن الأطفال والنساء."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

ساد الصمت ثم صرخ سامر بحدة:

-"علينا أن نُحذرهم فورًا قبل فوات الأوان."

مسحت مرام دموعها، حدّقت في الدفتر الذي كانت تخفيه تحت ملابسها، ثم قالت بثبات:

-"نحن لا نكتب فقط، نحن نقاتل بالكلمة والسلاح، هذا الدفتر سيشهد لكن نحن سنكون الصوت والسيف معًا."

هزّ الجميع رؤوسهم موافقين، استعادوا أنفاسهم وبدأوا التخطيط من جديد، لكن هذه المرة بحذرٍ أكبر، وبغضبٍ أشدّ، وعزيمةٍ لا تُكسر خاصة بعد استشهاد سامي الذي كان رفيقهم الأقرب.

بقي أنس مع يوسف في مكان آمن بعد أن أصرّ الجميع على بقائه ليرتاح، فيما

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

انطلقت بقية المجموعة إلى المدرسة المستهدفة، لكنهم لم يصلوا إلا على وقع القصف، ركضوا بأقصى ما يستطيعون يحاولون إنقاذ من يمكن إنقاذه، في لحظات معدودة كانت المدرسة أنقاضًا، والدخان يملأ المكان، قُتل عشرة أشخاص من بينهم شيوخ ونساء وأطفال.

ريم كانت أول من وصل تبحث تحت الركام عن أي نفسٍ حي، سامر رفع الألواح المحطّمة بعنف كأنّه يقاتل الدمار، أما مرام فكانت تسير بينهم مذهولة تحمل دفترها بيد، ودموعها بالأخرى، مرّت بجثة أمّ تحتضن ابنها تحميه بجسدها لكن لا أحد نجا، همست:

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

-"حتى الأمومة هنا تُقصف."

عند باب أحد الصفوف، وجدت طفلة تبكي بصمت، تمسك بدمية محترقة، جثت مرام أمامها وسألت بلطف:

-"ما اسمكِ يا صغيرة؟ هل أنتِ بخير؟"

قالت الطفلة بخوف: "لا تكتبي اسمي في دفتر الشهداء، أنا ما زلت هنا، أختي ذهبت لكنها قالت إنها ستعود، وأنا أنتظرها عند الباب."

أغمضت مرام عينيها للحظة ثم ضمّت الطفلة وقالت:

-"لن أكتبه بل سأكتب لكِ رسالة تقرئينها حين تعود أختك."

وفي تلك اللحظة رنّ هاتف ريم؛ كان يوسف على الخط، صوته مرتجف:

-"هـل أنـتم بخيـر؟ أنـس ينـزف بشـدة ولـم نجد طبيبًا."

أجـاب سـامر بسـرعة: "نحـن فـي المدرسـة سننهي ما بدأنا ونعود، ابقَ في مكانك."

لكـن مـا لـم تنهـه القـذائف، أكملـه الجـوع والعطـــش، الوجـــوه صـــارت شـــاحبة، العيـون خاويـة، حتـى الهـواء أصـبح ثقـيلًا محمّـــلًا برائحـــة المـــوت القـــادم، أنـــس الشـجاع الصـامد بـات بالكـاد يفـتح عينيـه، همس وكأنه يكتب وصيّته للعالم:

-"أنا لا أموت برصاصة بل من جوع وطن."

مـرام التـي لـم تحتمـل رؤيتـه يتلاشـى، هرعـت إليـه بقطعـة قمـاش مبلّلـة تحـاول أن تخفـف عنـه ولـو القليـل، وقبـل أن تنطق، فتح عينيه وهمس لها:

-"مرام... اهربي!"

لم تفهم حتى سمعت وقع الأحذية العسكرية يقترب، تتبعه أصوات الصراخ والرصاص، دخل الجنود كالسُّم بوجوه باردة لا تعرف الرحمة، أطلق أحدهم النار على أنس الذي لم يملك حتى القدرة على رفع يده، سقط أنس، سقط البطل، حاولت مرام الاقتراب لكن رصاصة اخترقت كتفها، صرخت لكنها لم تتوقف، ركضت بكل ما تبقّى فيها من حياة، كانت تركض من أجل شيء واحد:

-"يجب ألا يقع الدفتر في أيديهم، يجب أن أظل حيّة لأروي ما حدث."

نزفت كثيرًا لكنها نجت، اختبأت بين الأنقاض، والدم ينزف، والدخان يملأ

السـماء، وضـعت يـدها علـى جرحهـا، وباليد الأخرى أمسكت بالدفتر وهمست:

-"استُشـهد أنـس لكنـه سـيبقى حيًّـا هنـا فـي هذه الكلمات."

بعـد أن ارتاحـت مـرام قلـيلًا مـن الـركض والهـرب، سـمعت صـوتًا حنونًـا يختـرق الصـمت الثقيـل، كانـت عجـوز تقـف عنـد مـدخل الغرفـة المظلمـة، لـم تكـن قـد رأتهـا حين دخلت، قالت لها بصوت دافئ:

-"هيـا يـا صـغيرتي، تعـالي لتسـتريحي فـي منزلـي، اجمعـي شـتاتك أولًا ثـم تفكـرين بما بعد ذلك."

نظـرت مـرام إليهـا بعينـين تغمرهمـا الحيـرة والخوف، ثم همست بصوت منكسر:

-"لكن يا جدتي، أصدقائي، لا أعلم أين هم الآن."

ثم باغتها صوت داخلي آخر أقسى من صوت الفقد، تذكرت أنس، صورته وهو يصرخ لينقذها ثم يقع أمامها برصاصة العدو مزّقت ما تبقى من قوتها، لم تحتمل فانفجرت بالبكاء كطفلة تاهت في ركام المدينة، لم تعد دموعها خجولة بل خرجت دفعة واحدة كما لو أنها كانت تنتظر هذه اللحظة منذ شهور، العجوز لم تقل شيئًا، فقط فتحت ذراعيها وضمّتها بقلب أم، ظلّت مرام تبكي طويلًا حتى نامت بين ذراعيها من شدّة الإرهاق وكأنها وجدت حضن الوطن الضائع.

في صباح اليوم التالي استيقظت مرام وقد اختلطت الدموع بالضوء، جلست

تفكّر في طريقة للبحث عن أصدقائها، ربما عادوا، ربما نجوا، وربما...

لكن أفكارها توقفت فجأة حين فُتح باب الغرفة على مصراعيه ودخل الجميع دفعة واحدة! ريم، وسامر، ويوسف، وقفوا أمامها يبتسمون رغم كل التعب وكأن الحياة قررت أن تمنحها لحظة رحمة، غمرت الفرحة وجه مرام، ابتسمت وكأن الدماء عادت تجري في عروقها، أرادت أن تقوم وتحتضنهم جميعًا لكن جسدها لم يسعفها، جلس الجميع قربها واعدوها أنهم سيبقون حتى تستعيد عافيتها ثم يُكملون معًا ما بدأوه.

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

قــال ســامر ممازحًــا: "لــن نبــدأ الهجــوم بدون قائدة الكلمات."

ضــحك الجميــع ضــحكة قصــيرة لكنّهــا كانــت صــادقة، كــانوا يعلمــون أن القــادم أصــعب، لكــنهم أيضًــا أدركــوا أن مــا يــربطهم صــار أكبــر مــن الحــرب، صــار اسـمًا آخـر للوفـاء، بعـد لحظـات مـن السـكون، سـمع الأصـدقاء صـوتًا مألوفًـا فـي السـماء، طـائرات اقتربت أكثر وخرقت هدأة الصباح.

فــي البدايــة ارتجفــت القلــوب وظــنّ الجميــع أن الغــارات قــد بــدأت مــن جديــد، فاســتعدّوا للهــرب أو الاختبــاء لكــن ســرعان مــا دخلــت الجــدة مســرعة بعينــين يلمــع فيهمــا شــيء من الفرح:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"اطمئنوا يا أولادي ليست طائراتهم هذه المرّة، لقد وصلت مساعدات من بعض الدول العربية أخيرًا!"

ساد صمت خفيف امتزج فيه الشك بالأمل، أيمكن أن يكون ذلك حقيقيًا؟

قفز سامر ويوسف واقفين، نظر كلٌّ منهما إلى الآخر ثم اندفعا للخروج سريعًا ليروا بأعينهم ما جلبته الطائرات، أما ريم فقد اختارت البقاء قرب مرام تمسك بيدها بلطف، قالت لها بابتسامة خافتة:

-"ربما لم ينتهِ كل شيء بعد، ربما هذه بداية جديدة."

مرام لم تجب، فقط ابتسمت ونظرت إلى السقف كأنها تشكر السماء، ليس فقط

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

على المساعدات بل على الفرصة الجديدة للحياة.

عاد يوسف وسامر إلى الغرفة وهما يحملان صناديق كبيرة، في ملامحهما تعبٌ خفيف ولكن في أيديهما كان ينبض شيء آخر، أملٌ صغير بحجم الحياة، قال سامر مازحًا وهو يضع أحد الصناديق أرضًا:

-"يا إلهي! عندما صمتوا، صمتوا جميعًا، والآن قرروا أن يرسلوا كل شيء دفعة واحدة!"

ضحك الجميع ضحكة دافئة كسرت شيئًا من ثقل الأيام، جلست مرام وريم والجدة إلى جانب الصناديق يفتحنها بشغف يشبه فتح النوافذ بعد عاصفة طويلة،

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

وكان أول ما وقعت عليه يد مرام رسالة بخط طفل صغير كتب:

-"تمنّيت لو كنت معكم أحارب مثلكم ولو بحجر صغير."

ضحكت مرام من براءته ومسحت على الورقة كما لو أنها تلامس يده.

أما ريم فقد وجدت رسالة من امرأة كُتب فيها:

-"أنتم لستم وحدكم، قلوبنا معكم تنبض بنبض فلسطين وتتوقف بتوقفها."

نظرت ريم إلى مرام، ومرام إلى الجدة، وفي عيونهن لمعة جديدة، لمعة اسمها: نحن لم نُنسَ بعد، بينما استمرت الفتيات في فتح الصناديق وجدن شيئًا لم يكن طعامًا ولا دواءً بل رسومات صغيرة رسمها أطفال من بلدان عربية مختلفة،

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

كل واحدة تحمل علم فلسطين وقلبًا صغيرًا بجانبه.

قالت الجدة مبتسمة: "أنتم تزرعون الأمل هنا، وهم يسقونه من هناك."

ردّت مرام وهي تنظر إلى دفترها:

-"ربما هذه الرسائل ستملأ صفحاتي القادمة، لا عن الحرب فقط بل عن الأمل الذي يولد رغم كل شيء."

صمتوا لحظة ثم قالت ريم:

-"يبدو أن الحجارة ليست كل ما نحارب به، بل الكلمة، والصورة، والضحكة، والرسالة."

أومأ يوسف وقال:

- "ولا خيانة بعد الآن، فقط قلوب تعرف من أين تبدأ، وإلى أين تنتمي."

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

هدأ الليل بعد صخبٍ طويل من الخوف والقصف، لكن في ذلك البيت الصغير الذي آوى مرام ورفاقها، بقي ضوءٌ صغير مشتعلًا في زاوية الغرفة كأنّه يصارع الظلام بإصرار طفولي.

كان يوسف جالسًا يفكّك جهاز راديو قديم، يملأ الغبار كفّيه بينما ترتسم على وجهه ابتسامة خفيفة كأنه يخطط لشيءٍ أكبر من حجمه، قال سامر وهو يتفحص بعض الأسلاك بتركيز:

-"إذا تمكّنا من تشغيل هذا، سنُسمع الناس أصواتنا، لا أصواتهم."

رفعت ريم حاجبيها بدهشة:

-"تقصد أن نبث شيئًا؟ من هنا؟ كيف؟"

ردّ يوسف وهو يربط سلكين بنبض قلبه:

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

-"أبي كان يُصلح هذه الأجهزة، تعلّمت منه القليل، ربما نستطيع إنشاء محطة صغيرة نرسل منها رسائل للناس، أملًا، أخبارًا، وربما قصصنا."

ساد صمتٌ لثوانٍ، صمتٌ يشبه صلاة، ثم قالت مرام وهي تحتضن دفترها كأنّه قطعة من الروح:

-"أنا جاهزة، سأقرأ لهم من هنا، من قلبي، من وجعنا، ومن أملنا."

من المطبخ حيث كانت الجدة تصنع الشاي على نار الحطب، ارتفع صوتها بدفء:

-"أحسنتم يا أولادي، ليكن صوتكم أقوى من الطائرات."

ضحكوا جميعًا ضحكة قصيرة لكنها صادقة، كانوا يعلمون أن الطريق طويل

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

لكنهم أيقنوا أن ما يربطهم صار أسمى من الحرب، صار اسمه: الحياة.

بدأ يوسف تشغيل الجهاز، أصوات تشويش ثم فجأة هدوء، ثم انطلق صوت مرام ناعمًا ممتلئًا بالإيمان:

-"إلى كل من يسمعنا، نحن ما زلنا هنا، لم تمت الكلمات، لم تنطفئ العيون، وإن هُدمت البيوت، فالحكاية لا تُهدم."

تسرّب صوتهم إلى العالم وبدأت المساعدات بالوصول تدريجيًا، أُرسلت إليهم صناديق تحوي الغذاء، الدواء، والرسائل الدافئة.

وبعد أن تعافت مرام تمامًا، قرّر الأصدقاء أن يعودوا للهجوم لكن هذه المرة بخطة أكثر حذرًا؛ مرام وسامر من

جهـــة، ريـــم ويوســـف مـــن جهـــة أخـــرى، ومحمـــد وعـــامر مـــن جهـــة ثالثـــة، كـــل مجموعـــة نجحـــت فـــي اقتنـــاص جنـــدي مـــن العدو بهدوء وأخذ أسلحته دون ضجيج.

مـــع نهايـــة اليـــوم عـــادوا إلـــى بيـــت الجـــدة محمّلـــين بالأســـلحة لتجـــدهم قـــد أعـــدّت لهـــم طعامًـــا ســـاخنًا، جلســـوا يـــأكلون ويضـــحكون بينمـــا صـــوت الإذاعـــة يصـــدح فـــي الخلفيـــة برسائل دعم من مختلف أرجاء العالم.

فـــي صـــباح اليـــوم التـــالي نظـــرت ريـــم إلـــى مرام وقالت بابتسامة:

-"ماذا لو بدأنا من جديد، من الجذور؟"

فهمـــت مـــرام فـــورًا وأومـــأت برأســـها؛ قررتـــا البـــدء بتعلـــيم الأطفـــال فـــي مكـــانٍ بعيـــد عـــن أعـــين الجنـــود، بينمـــا الجـــدة تســـاعدهما فـــي

ترتيب المكان وتحضّر لهما الأمان، وهكذا عادت الحياة تُرمم نفسها، لا من الخارج فقط بل من داخل الأطفال الذين سيكبرون على قصص الشجاعة لا على أصوات البنادق.

في صباحٍ رمادي بالكاد تسلّل فيه الضوء، وقفت مرام وسط ساحة صغيرة شبه مدمّرة تحوّلت بلمسات ريم والجدة إلى صفّ دراسيّ بدائي، بعض الطاولات الخشبية، أكياس طحين فارغة فرشت على الأرض، وسبورة مكسورة نصفها مائل، ورغم ذلك كان الأطفال يأتون، وجوههم نحيلة لكن عيونهم ممتلئة بالدهشة والفضول، بدأت مرام أول درس بكلمات عن الأمل لا بالحروف

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

قالـــــت لهـــم: "قبـــل أن تتعلمـــوا الألـــف، دعونا نتعلم كيف نرفع رؤوسنا."

ثـم بـدأت تحكـي حكايـة أنـس دون بكـاء بـل بابتسـامة تليـق بمـن قـدّم روحـه ليحمـيهم، وقـف كـل طفـل بعـدها ليتحـدث عـن شـجاعة عائلته في المقاومة.

أمـا ريـم، فكانـت ترسـم خريطـة فلسـطين علـى الحـائط بجـذع الفحـم وتشـرح لهـم عن القرى والمدن، ثم تسألهم:

-"من منكم فقد بيتًا؟"

ترتفع أيدٍ صغيرة لكن لا أحد يبكي بل يسألون:

-"متى نعود؟"

بينمـا يـتعلّم الأطفـال، تـدخل الجـدة بحلـوى بسيطة من التمر والدقيق، وتقول:

"الحرب علمتكم الألم، ونحن سنعلّمكم الحُلم."

نسمات الادب للنشر الإلكتروني

وفـــي الجهـــة المقابلـــة كـــان يوســـف وســـامر يصـــنعان رفًـــا صـــغيرًا مـــن خشـــب مكســـور ليضعوا عليه دفاتر الأطفال، وسمّوه:

-"مكتبة أنس."

علّقـــت مـــرام فـــي أعـــلاه صـــورة لأنـــس، وبجانبهـــا دفترهـــا، وصـــورة لســـامي الـــذي لم تنسَه الذاكرة.

فـــي نهايـــة اليـــوم ســـمع الأطفـــال صـــوت طـــائرة تحلّـــق مجـــددًا، فـــارتبكوا لكـــن مـــرام رفعت يدها قائلة:

-"نحـــن لا نـــركض كـــل مـــرة، هـــذه المـــرة نرســـم ونقـــرأ ونغنّـــي لوطننـــا بصـــوتٍ أعلـــى من الطائرات."

وبينمـا تُنهـي كلماتهـا، جلسـت فـي زاويـة المكـان تراقب طفلًا صغيرًا يكتب على السبورة:

-"فلسطين حرة."

فابتسمت وأغلقت دفترها، لقد كتبت ما يكفي، وحان وقت أن يكتبوا هم.

-"هنا صوت من تحت الركام، لا نطلب أن تبكوا لأجلنا بل أن تنهضوا معنا، لا نريد الشفقة بل الشراكة، نحن هنا، ما زلنا نكتب، ما زلنا نحيا."

غادرت مرام المكان والدفتر في يدها، وقبل أن تختفي بين الحقول، مرّت بطفلة تحمل دميتها المحترقة وتبتسم، كان ذلك كافيًا، فحتى في الخراب ما زالت الحياة تُولد.

"ربما لم تنتصر البنادق، لكن الكلمة انتصرت وستظل تنتصر، ما دام هناك من يكتبها بقلبٍ لا يخون."

★★★

نسمات الادب للنشر الإلكترونى

الخاتمة

لـن أقـول بـأن هـذه هـي النهايـة، لأن نهايـة هـذه الروايـة مثـل فلسـطين لـم تُكتـب بعـد، فالحكايـة لـم تنتـهِ، والوجـع لـم يسـكت، والأمل لم يمت.

لـن تكتمـل الأحـداث إلا حـين يُكتـب النصـر، حـين تعـود الأرض، وتُرفـع الرايـة مـن جديـد، إلـى أن يـأتي ذاك اليـوم، سـتظل هـذه الصـفحات شـاهدة، وسـتبقى فلسـطين الحكاية التي لا تنتهي.

★★★

نبذة عن الكاتبة

سيرين جلال، كاتبة جزائرية، أكتب لأنني لا أُجيد الصمت حين يُذبح الحق، ولا أستطيع المرور على الحكايات الثقيلة مرور الغرباء.

في حروفي شيءٌ مني، وشيءٌ من كلّ من فقد وطناً، أمًّا، أو ضحكة، لي عدة محاولات سابقة في عالم الرواية لكن هذه التجربة مختلفة، كتبتها بروحي لا بقلمي فقط، كتبتها لأن فلسطين ليست عنوانًا عابرًا بل وجعًا في القلب، ووصية في الذاكرة.

أنا لا أكتب لأُعجب بل لأُشفى، ولأُشعل شمعةً صغيرة في عتمة هذا العالم الكبير، فإن وجدتَ شيئًا منك بين

السـطور فـاعلم أنـني كتبـت لـك، وإن شـعرتَ أن الكلمـات تمسّـك فربمـا لأننـا نحمل الهمّ نفسه.

★★★